لغة القرآن المكي ودورها في الإصلاح العقدي والأخلاقي (لفظا ومعنى)

The Quranic Language of Meccaand its Role in the Doctrinal and Ethical Reformation– in Vocable and Meaning

طد. فضيل صداق[1]

أد. مختار حمحامي

جامعة وهران1 أحمد بن بلة

ملخص: من خلال دراسة مبحث مكيِّ القرآن ومدنيِّه، نستخلص أن مواضيع كل منهما لها طابع خاص، كما أن لغة كل منهما لها إيقاع مميز، مما يدل على أن الظروف المحاطة بنزول كل منهما لها دور في الوقوف على الجانب الإصلاحي لكل منهما، فالقرآن المكي انتحى منحىً إصلاحيا متميزا على مستوى الأخلاق والعقيدة، لأن متطلبات المرحلة المكية اقتضت ذلك، فجاء بخطاب إصلاحي حقق به الهدف المنشود من العقيدة الإسلامية، وأسس به لمكارم الأخلاق في المجتمع المكي، وتوسل الطرق الملائمة لتحقيق ذلك، من تأصيل وتدليل للمسائل العقدية، وتعميق لمكارم الأخلاق في نفوس المخاطبين.

الكلمات المفتاحية: القرآن المكي، الإصلاح، العقيدة، الأخلاق، الإصلاح العقدي، الإصلاح الأخلاقي.

Abstract: Through the study of Quran Mekki's and Madanni's, we conclude that the subjects of each of them have a special character, and each language has a distinctive rhythm which indicates that the circumstances surrounding the descent of Quran Mekki's and Madanni's have a role in standing on the reform side of each one of them. The Mekki Qur'an sufficed with a reformist approach at the level of ethics and faith because the requirements of the Mecca phase necessitated such an approach. The Makki Qur'an came up with a reformist speech that achieved the desired goal from the Islamic faith and founded the ethics of the interlocutors themselves.

Keywords: MeccanQuran, Reformation, Doctrine, Ethics, DoctrinalReformation, Ethical Reformation.

[1]– اسم ولقب المرسل: طد. فضيل صداق، جامعة وهران1 أحمد بن بلة،

البريدالالكتروني: fodil.seddak.27@gmail.com

المقدمة:

إن الدارس للسيرة النبوية يجد أنها انقسمت إلى شطرين، مرحلة ما قبل الهجرة والمرحلة ما بعدها، فأما الأولى ففي مكة وكانت في زهاء ثلاث عشر سنة، والثانية ففي المدينة وكانت في عشر سنين، وكان لكل مرحلة خصوصية من حيث ظروفها وشروطها ومواضيعها، من هذا المنطلق جاءت سور القرآني الكريم وآياته على نسق يناسب مقتضيات كل مرحلة وتحدِّياتها، وعليه قسم العلماء القرآن إلى مكي ومدني، فميزوا بينهما واستنبطوا ضوابط كل منهما، ومما ميز القرآن المكي أنه نزل لإصلاح ما كان من عقائد فاسدة تأصلت في العرب، وأخلاق سمجة رسخت من أيام الجاهلية، فكان دور الإصلاح في القرآن المكي بارزا على المستويين المذكورين، فما هو القرآن المكي؟ وما قول العلماء فيه؟ وما هي مميزاته وضوابطه؟ وإلى أي مدىً ساهم القرآن المكي في الإصلاح العقدي والأخلاقي؟ وما هي الوسائل التي اتخذها لتحقيق هذا الإصلاح؟

2. تحديد المفاهيم:

لابد أن نعرج ـ بادئ الأمر ـ على تعريف مفردات الموضوع الذي هو قيد الدراسة، كي تضح بعد ذلك المفاهيم التي في طيات البحث، فتعقل حججه، وتفهم نتائجه، بناء على هذا المبدأ لابد من تعريف القرآن المكي، والإصلاح، والعقيدة، والأخلاق.

1.2 تعريف القرآن المكي:

جاء الخطاب القرآني على حسب ما تحتاجه مقتضيات كل مرحلة، وعلى ما ترفعه تحديات كل فترة، ولا أدل على ذلك من اختلاف العلماء في الاعتبار الذي من خلاله يقسم القرآن إلى مكي ومدني، فقد افترقت أقوال العلماء في المسألة على ثلاثة أقوال، كل رأى اعتبارا معينا لضبط مصطلح المكي والمدني، قال بدر الدين الزركشي في البرهان: (اعلم أن الناس في ذلك ثلاثة اصطلاحات: أحدها: أن المكي ما نزل بمكة، والمدني ما نزل بالمدينة، والثاني: – وهو المشهور — أن المكي ما نزل قبل الهجرة، وإن كان بالمدينة، والمدني ما نزل بعد الهجرة، وإن كان بمكة، والثالث: أن المكي ما وقع خطابا لأهل

مكة والمدني ما وقع خطابا لأهل المدينة)[1]، وكثير من الباحثين ذهب إلى ترجيح الاعتبار الزمني في تقسيم المكي والمدني، كما هو الحال مع مناع القطان حين قال: (وهذا الرأي أولى من الرأيين بعده لحصره واطراده)،[2] خاصة وإنه يساهم بشكل كبير في المعنى الذي نقصد إليه، لأنه يرمي إلى أن القرآن المكي مستغرق لجميع أفراده بالاعتبار الزماني، مما يؤكد أن القرآن المكي جاعل نصب عينه مواضيع محددة كي يعالجها، وظروفا معينة يريد تغييرها، فجاءت آيات المكي وسوره مراعية لظروف المرحلة، مجيبة عن إشكالاتها اللاهوتية والميتافيزيقية والأخلاقية، ومعالجة للظواهر الاجتماعية السائدة في تلك الحقبة، أما المذاهب الأخرى التي ذكرت في بيان حد السور المكية فإنها تفضي إلى قسم برزخي ثالث ، لا هو في المكي ولا هو في المدني، ومع هذا يمكن أن نقف على بعض مقاصد القرآن المكي من خلال الاعتبار المكاني، ومن خلال اعتبار المخاطب، لكن يبقى الاعتبار الزمني أشمل لأفراده، وأكمل في بابه.

2.2 تعريف الإصلاح:

ذكر ابن فارس أن "الصاد واللام والحاء" أصل واحد يدل على خلاف الفساد،[3] وقال المرتضى الزبيدي: (وأصلحه ضد أفسده، وقد أصلح الشيء بعد فساده: أقامه، ومن المجاز أصلح إليه: أحسن، يقال: أصلح الدابة، إذا أحسن إليها فصلحت...)،[4] فالإصلاح بحسب اللغة يقتضي ركنين أساسين، المصلح والموضوع المراد إصلاحه، سواء كان هذا

[1]- بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، دار التراث، القاهرة، ت محمد أبو الفضل إبراهيم، ج1 ، ص 187

[2]- مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، مكتبة المعارف، الرياض، ط2، 1418هـ/1996م، ص 61

[3]- أبي الحسن أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، دار الفكر، ت عبد السلام محمد هارون، ج 3 ، ص 303

[4]- المرتضى الزبيدي، تاج العروس، مطبعة حكومة الكويت، 1369هـ/1969م، ت: حسين نصار، ج6، ص 548

الموضوع بسيطا أو مركبا، وحينما تطرق محمد عمارة إلى تعريف الإصلاح في الإسلام، أكدَّ بأنه ليس تغييرا جزئيا ولا سطحيا، وإنّما هو: تغيير شامل عميق، يبدأ من الجذور، ويمتد إلى سائر مناحي الحياة، بل إنه لا يقف عند ميادين الحياة الدنيا، وإنما يجعل من صلاح الدنيا السبيل إلى الصلاح والسعادة فيما وراء هذه الحياة الدنيا،[1] كما أن الإصلاح كان من أهم المواضيع التي تطرق إليها القرآن المكي بالدراسة والبيان، وخاصة منه ما نزل بمكة، فضرب لذلك الأمثال وقص القصص، وحث على إصلاح النفس والعمل، وعدم الفساد في الأرض، ولا أدل من ذلك ما قوله على لسان شعيب ـ عليه السلام ـ : (إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت)، أي: ما أريد إلا فعل الصلاح، أي: أن تصلحوا دنياكم بالعدل وآخرتكم بالعبادة.[2]

3.2 تعريف العقيدة:

ذكر ابن فارس أن لمادة "العين والقاف والدال" أصل واحد يدل على شَدٍّ وشدة وثوق، وإليه ترجع فروع الباب،[3] وانطلاقا من المعنى اللغوي فالعقيدة هي: الصلة الوطيدة التي تكون بين الإنسان وقناعاته، فلا ينفك عنها إلا بدليل وبرهان محكم، وقد عرف مصطلح العقيدة إطلاقات متعددة، منها: الإيمان والفقه الأكبر وعلم الكلام وأصول الدين والتوحيد حتى استقر المصطلح على اسم "العقيدة"، حيث إن ابن خلدون عرفها بقوله: (هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة والمنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة)،[4] وعرفه الإيجي بقوله: (والكلام علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه، والمراد بالعقائد ما يقصد به نفس الاعتقاد دون العمل، وبالدينية المنسوبة على دين محمد صلى الله عليه وسلم، فإن

[1] – محمد عمارة، الشيخ البشير الإبراهيمي إمام في مدرسة الأئمة، دار السلام، القاهرة، ط1، ص 18

[2] – أبو عبد الله القرطبي، الجامع لأحـكام القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1467هـ/2006م ت: عبد الله بن عبد المحسن التركي ، ج11، ص 198

[3] – ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج4، ص86

[4] – ابن خلدون، المقدمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1425هـ/2005م، ص 423

الخصم وإن خطأناه لا نخرجه من علماء الكلام)، فالتعريفان يدوران حول وظيفة علم الكلام كما هو ملاحظ، ومن خلال ما سبق يمكن تعريف العقيدة بأنها: علم يبحث فيه عن ذات الله تعالى وصفاته وأحوال الممكنات من المبدأ والمعاد على قانون الإسلام.[1]

4.2 تعريف الأخلاق:

عرف الجرجاني الخلق فقال: (عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجملية عقلا وشرعا بسهولة سميت الهيئة خلقا حسنا، وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقا سيئا)،[2] والملاحظ على هذا التعريف أنه تطرق إلى الأخلاق باعتبار تطبيقها في الواقع، كما نبه الجرجاني إلى فائدة القيد الأول من التعريف فقال: (وإنما قلنا: " إنه هيئة راسخة " لأن من يصدر منه بذل المال على الندور بحالة عارضة لا يقال خلقه السخاء ما لم يثبت ذلك في نفسه، وكذلك من تكلف السكوت عند الغضب بجهد أو روية لا يقال خلقه الحلم، وليس الخلق عبارة عن الفعل، فرب شخص خلقه السخاء، لا يبذل إما لفقد المال أو لمانع، وربما يكون خلقة البخل وهو يبذل لباعث أو رياء)،[3] أما حبنكة الميداني فعرف الأخلاق بقوله: (ولدى التأمل وإمعان النظر يتبين لنا أن الخلق صفة مستقرة في النفس ـ فطرية أو مكتسبة ـ ذات آثار في السلوك محمودة أو مذمومة)،[4] فأشار إلى موضوع فطرية الأخلاق واكتسابها، وأدخل كلا منها تحت مسمى الأخلاق، كما أكد على ثمرة المرجوة من الأخلاق والتي هي السلوكات، بقطع النظر عن طبيعتها حسنة كانت أم قبيحة، لأن المراد تعريف جنس الأخلاق، لا ما هو المعهود والمتبادر إلى الذهن حال إطلاقها، وعلى ما بيَّن الميداني، فإن الخلق: منه ما هو محمود، وما

[1]- الشريف الجرجاني، التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1424هـ/2003م ،ص 185

[2]- المرجع نفسه، ص 105

[3]- المرجع نفسه، ص 105

[4]- عبد الرحمن حبنكة الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، دار القلم، دمشق، ط5، 1420هـ/1999م، ج1، ص 10

هو مذموم، والإسلام يدعو إلى محمود الأخلاق، وينهى عن مذمومها،[1] وبهذا الاعتبار يضح الإصلاح الأخلاقي الذي رامه القرآن الكريم بصفة عامة، والمكي منه بصفة خاصة على مقتضى ما سيأتي لاحقا.

3. مساهمة القرآن المكي في ترسيخ العقيدة الإسلامية:

كان للقرآن المكي دور عظيم في ترسيخ العقيدة في نفوس مخاطَبيه، يتحدد هذا الدور في النقاط الآتية:

1.3 أصالة الموضوع العقدي في السور المكية: إن أبرز مميزات السور المكية وخصائصها التي ذكرتها كتب علوم القرآن: تقرير أسس العقائد الإسلامية ودعوة الناس جميعا إلى الإيمان بالله وحده والإيمان برسله وباليوم الآخر،مع الاعتماد على الدلائل العقلية الملحوظة في ملكوت السموات والأرض وفي النفس الإنسانية، وهو الأمر الذي عبر عنه فهد الرومي حين عرض لمميزات السور المكية بقوله: (تأسيس العقيدة الإسلامية في النفوس بالدعوة إلى عبادة الله وحده، والإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم، وباليوم الآخر، وإبطال المعتقدات الوثنية الجاهلية، وعبادة غير الله، وإيراد الحجج والبراهين على ذلك)،[2] بل ذهب محمد قطب إلى أن السور المكية مشغولة كلها بالعقيدة – ولا شيء إلا العقيدة – خلال ثلاثة عشر عاما من الزمان، وأن التشريعات والتنظيمات لم يتنزل منها شيء في مكة إلا توجيهات عامة، حيث قال: (الموضوع الرئيسي في السور المكية كله هو العقيدة، هو "لا إله إلا الله" بكل موجباتها في الآفاق والأنفس، وكل تفصيلاتها وتفريعاتها، وكل مقتضياتها في واقع النفس وواقع الحياة)،[3] وكل هذا يثبت الدور المهم للقرآن المكي في إثبات العقيدة الإسلامية وترسيخها في النفوس.

[1] – المرجع نفسه، ج1، ص 10

[2] – فهد الرومي، دراسات في علوم القرآن، ص 143

[3] – محمد قطب، دراسات قرآنية، دار الشروق، القاهرة وبيروت، 21

2.3 السور المكية مؤسسة للمرحلة المدنية:

أسس القرآن المكي لمفاهيم المرحلة المدنية، خاصة بعدما أرسى العقيدة التي دعا إليها في نفوس من آمن به، وتوخى في ذلك الجميع السبل المقنعة عقلا ووجدانا، فقد قرر محمد قطب أن المجتمع المسلم في المدينة قد قام، وقامت الدولة المسلمة كذلك، وكان قد تربى على العقيدة الصحيحة جيل كامل، بعضه تربى في مكة من قبل، خلال ثلاثة عشر عاما من الدعوة، وبعضه تربى في المدينة قبل الهجرة وبعدها، بل كان قد تربى لهذه العقيدة جنود يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون، وليس بعد تقديم النفس فداء لهذه العقيدة والموت في سبيلها دليل على مدى تأصلها في نفوس أصحابها، وصدقهم في اعتناقها، والتجرد لله فيها، ومع ذلك فقد كان هؤلاء المؤمنون المجاهدون أنفسهم يخاطبون في أمر العقيدة في العهد المدني من أول سورة إلى آخر سورة، وذلك دليل واضح على أن الاهتمام البالغ بأمر العقيدة في القرآن لم يكن سببه إنكار العرب في جاهليتهم، إنما لابد أن يكون سببه الأهمية الخالصة للموضوع ذاته، حتى وإن كان المخاطبون به مؤمنين.[1]

4. الإصلاح العقدي في القرآن المكي:

تكاد مباحث العقيدة تنحصر في الإلهيات والنبوات والكونيات، وكل واحد منها له علاقة وطيدة بالقرآن المكي، الذي يعتبر مصدرا مُهمًّا من مصادرها، إن لم يكن المصدر الأول لها في دراسة مسائلها.

1.4 الإلهيات: في هذا المبحث يعقد التركيز على إقامة الدليل على وجود الخالق ووحدانيته، طبق مناهج عديدة تراعي الاستعداد الإنساني وقدرات البشر المختلفة، والمقصود من ذلك الوصول إلى قناعة ثابتة الأساس بأن الخالق موجود، وهذا هو الشأن الذي اعتنت به السور المكية بشكل كبير، بحيث يتلقاها كل على حسب استعداده النفسي والعلمي والروحي، وتتجلى مصاديقه في العديد من الآيات والسور، ومن أمثلة ذلك:

– صفة الوحدانية: من الصفات التي بَيَّنها القرآن المكي بل ونوَّع في طرق إيصال مفهومها، صفة الوحدانية،التي هي: سلب تصور الكمية في ذاته وصفاته سبحانه وتعالى،

[1]– – المرجع السابق، ص 21

سواء الكمية المتصلة والكمية المنفصلة،[1] وفي سورة يوسف ذكر لمنهج من مناهج إثبات هذه الصفة بطريق التدرج العقلي المنطقي، كي يصل المتلقي إلى حالة الاقتناع بهذه القضية، وذلك في قوله تعالى: (**يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار**)، شرح ابن عاشور المنهج المتبع في هذه الآية، فقال: (وإنما أراد بالكلام الذي كلمهما به تقريبهما بإبطال دينهما، فالاستفهام تقريري، وقد رتب لهما الاستدلال بوجه خطابي قريب من أفهام العامة، إذ فرض لهما واحد متفردا بالإلهية كما هو حال ملته التي أخبرهم بها، وفرض لهما آلهة متفرقين كل إله منهم يتصرف في أشياء معينة من أنواع الموجودات تحت سلطانه لا يعدوها إلى ما هو من نطاق سلطان غيره منهم، وذلك حال ملة القبط، ثم فرض لهما مفاضلة بين مجموع الحالين الإله المنفرد بالإلهية والأحوال المتفرقة للآلهة المتعددين ليصل بذلك إلى إقناعهم بأن حال المنفرد بالإلهية أعظم وأغنى، فيرجعان عن اعتقاد تعدد الآلهة، وليس المراد من هذا الاستدلال وجود الحالين في الإلهية والمفاضلة بين أصحاب هذين الحالين، لأن المخاطبين لا يؤمنون بوجود الإله الواحد)،[2] وهذه الطريقة التي جاءت في سورة يوسف وغيرها من الطرق عززت تقرير ثم إثبات صفة الوحدانية في نفوس المخاطبين في الفترة المكية، وغرس فيهم توحيد الذات العلية وتنزيهها عن الشريك، فالمقصود بوحدانية الله أن تعلم بأنه سبحانه وتعالى ليس كُلاً مركبا من أجزاء، ولا كليا مكونا من جزئيات، والدليل الجامع على ذلك قوله تعالى: (قل هو الله أحد)، فقد نفت الآية، بإسناد صفة الوحدانية إليه، كلا من صفة الكل والكلية عنه.[3]

– **المخالفة للحوادث:** ومعناها: عدم مماثلته جل جلاله لها، فهو سبحانه ليس بجرم ولا عرض ولا كلي ولا جزئي،[4] وقد ثبت برهان هذه الصفة لله تعالى بالعقل والنقل، ولكن

[1]– محمد سعيد رمضان البوطي، كبرى اليقينيات الكونية، دار الفكر، بيروت، لبنان، دمشق، سوريا، ط1، 1434هـ/2010م، ص111

[2]– الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984، ج12، ص274

[3] – محمد سعيد رمضان البوطي، كبرى اليقينيات الكونية، ص 112

[4]– المرجع نفسه، ص 117

الذي هو محل الاهتمام، ومجمع المرام، أن نقف على كيفية تعامل القرآن المكي مع هته المسألة، والنص فيها قوله تعالى: (**ليس كمثله شيء وهو السميعالبصير**)،[1] فصفات القديم جل وعزّ بخلاف صفات المخلوق، إذ صفاتهم لا تنفك عن الأغراض والأعراض، وهو تعالى منزه عن ذلك وكفى في هذا قوله الحق: (**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**).[2]

2.4 النبوات:فقد تطرق هذا المبحث لظاهرة الوحي والأنبياء والمعجزات وغيرها من المواضيع، والقرآن المكي كان فيه بيان لهذه الموضوعات المتعلقة بمبحث النبوات، فظاهرة الوحي – مثلا – فصلتها سورة الشورى في قوله تعالى: (**وما لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء إنه علي حكيم**)،[3] وهذه الأنحاء من الوحي لخصت في هذا المبنى المختصر الذي حوى مقاصد سورة الشورى، إذ قد كان أهم غرض هذه السورة إثبات كون القرآن وحيا من الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم كما أوحي من قبله للرسل كان العود إلى ذلك من قبيل ردّ العجز على الصدر،[4] فهذه الآية المكية نزلت للرد على المشركين، الذين اقترحوا على النبي الكثير من الطرق لنزول الوحي، "فبيّن الله للمكذبين أن سنة الله في خطاب رسله لا تعدو أن تكون على ثلاثة أنحاء من الخطاب، منها ما جاء به القرآن فلم يكن ذلك بدعا مما جاءت به الرسل الأوَّلون، وما كان الله ليخاطب رسله على الأنحاء التي اقترحها المشركون على النبي صلى الله عليه وسلم، فجيء بصيغة حصر مفتتحة بصيغة الجحود المفيدة مبالغة النفي وهي : **"وما كان لبشر أن يكلمه الله"** أي: لم يتهيأ لأحد من الرسل أن يأتيه خطاب من الله بنوع من

[1]- سورة الشورى، الآية 11
[2]- أبو عبد الله القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج18، ص 450
[3]- سورة الشورى، الآية:51
[4]- الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج25، ص 140

هذه الثلاثة"،[1] وفي هذا إصلاح عقدي انبرت له آيات القرآن المكي لبيان طبيعة ظاهرة الوحي المنزل على الأنبياء.

أما الأنبياء فقد عرفت بهم الآيات المكية على كثير من النواحي، فأوجب الإيمان بهم كركن من أركان الإيمان، وكثيرا ما كان يصورهم القرآن المكي في مشاهد حية مع أقواهم، وكيف تعرضوا للجحود والتكذيب والأذى والصد والكيد، في ذلك للدارس من العظات والعبر والفوائد والدروس وإقامة القدوة لكل من يتأثر بهته القصص، كما أن الوحي المكي تعرض لصفات الأنبياء وخصالهم وأخلاقهم ومعجزاتهم، وردود أفعالهم وكيفية تعاملهم للمخالف، وطريقة تربيتهم لأتباعهم، كل هذا وغيره من الآثار الإيجابية كانت غداة تطرق القرآن المكي للأنبياء وكل ما يتعلق بهم، ومن المعلوم أن علم العقيدة عكف على دراسة هذا كله، وسورة الشعراء أجلى مثال: (فقد تضمنت هذه السورة كسائر السور المكية الكلام عن أصول الاعتقاد والإيمان من إثبات " التوحيد، والرسالة النبوية، والبعث لذا كانت آياتها قصارا للزجر والردع وشدة التأثير ، ثم أوردت قصص الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم لعظة المكذبين مبتدئة بقصة موسى ومعجزاته، ومحاورته مع فرعون الجبار وقومه في الشأن توحيد الله، وتأييده بالآيات البيّنات، وإيمان السحرة برب موسى وهارون، ثم تلتها قصة وحدانية الله عز وجل، ثم جاء بعده قصص " نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب " عليهم السلام، وما فيها من حملاتهم العنيفة ضد الوثنية، والفساد الخلقي والاجتماعي، وبيان عاقبة التكذيب للرسل، ونهاية الجبابرة العتاة بأنواع رهيبة من العذاب).[2]

4.4 الكونيات:حضت الآيات القرآنية المكية على تدبر الكون والتأمل فيه بإمعان، فهي . بحسبه . توصل الإنسان إلى كثير من الحقائق التي تتعلق بوجود الله ووجوده، وتجيب عن العديد من الأسئلة الوجودية التي تتبادر إلى خَلَد الإنسان، بل إن هته الآيات كثيرا ما ترفع

[1]- المرجع نفسه، ج25، 141

[2]- وهبة الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر، دمشق، ط 10، 1430هـ/2003م، ج10، ص130

التحدي أمام المكذبين للنبوة والوحي مقيمة عليهم الحجة، منها قول الله تعالى في آخر سورة "فصلت" : (**سنريهم آياتنا في الأفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد**)،[1] وفي الآية طرف من الإعجاز بالإخبار عن الغيب إذ أخبرت بالوعد بحصول النصر له ولدينه، وذلك بما يسَّر الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ولخلفائه من بعده في آفاق الدنيا والمشرق والمغرب عامة، وفي باحة العرب خاصة من الفتوح وثباتها وانطباع الأمم بها ما لم تتيسر أمثالها لأحد من ملوك الأرض والقياصرة والأكاسرة على قلة المسلمين،[2] أما الزحيلي فقد زاد على هذا التفسير التقليدي تفسيرا يراعي بعض الحقائق العلمية التي تؤصِّل إليها، فقال: (أي: سنظهر لهم دلالات صدق القرآن، وعلامات كونه من عند الله في أقطار السموات والأرض المشتملة على خلق الشمس والقمر والنجوم، وتعاقب الليل والنهار، وأحداث الكون الرهيبة من الأعاصير والبراكين والصواعق، وعظمة الجبال والبحار، وإبداع صنع النباتات والأشجار، وما يحدث في الأرض من فتوحات كبرى على أيدي المسلمين في أرجاء الأرض المحيطة بمكة والجزيرة العربية، وهذا الإخبار عن الغيب معجزة).[3]

5. الإصلاح الأخلاقي في القرآن المكي:

برز الإصلاح العقدي في القرآن المكي على كثير من الأصعدة والمستويات، يمكن الوقوف عليها في الآتي:

1.5 المحافظة على أصول الأخلاق الاجتماعية من خلال القرآن المكي:جاء في القرآن المكي ذكر الأصول الكبرى للأخلاق الفاضلة، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: (**خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين**)،[4] هذه الآية من ثلاث كلمات، تضمنَّت

[1]- سورة فصلت، الآية: 53
[2]- الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج25، ص 19
[3]- وهبة الزحيلي، التفسير المنير، ج13، ص18
[4]- سورة الأعراف، الآية: 199

قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات،[1] فمن هذا النص المكي نقف على القصد من وضع قواعد الشريعة، الذي هو البناء السليم لأخلاق المجتمع، ومنع كل ما من شأنه أن يهز النسيج المجتمعي، لذاك أتى هذا الخطاب الوجيز جامعا لهذه المعاني، ومنتصرا لمكارم الأخلاق، وفي هذا الشأن قال جعفر الصادق: (أمر الله نبيه بمكارم الأخلاق في هذه الآية وليس في القرآن أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية).[2]

2.5 العلاقة بين الإصلاح العقدي والإصلاح الأخلاقي في القرآن المكي:

تظهر العلاقة الوطيدة بين الأخلاق والعقيدة في القرآن المكي على الحقيقة إذا لاحظنا طريقة تناولهما فيه، إذ أن الإصلاح فيهما يقع ـ إلى حد بعيد ـ بالتوازي، وهذا ما سار عليه محمد قطب حين قرر أن: التنديد لأخلاقيات الجاهلية قد بدأ منذ اللحظة الأولى، مع التنديد بفساد تصوراتهم الاعتقادية، واستمر معه حتى النهاية، وفي ذلك دلالة معينة لا ينبغي أن تغيب عن أذهاننا، وهي أهمية العنصر الأخلاقي في هذا الدين، وتعمقه إلى الجذور العقدية ذاتها، وارتباط التصور الاعتقادي بالسلوك الأخلاقي في شتى مناحي الحياة،[3] كما عني المكي بصفات المعاني كـ: "العلم " "القدرة" "الإرادة" "السمع" " البصر" "الكلام" وغيرها من الصفات، فصفة العلم مثلا هي: (صفة أزلية قائمة بذاته تعالى يتأتى بها كشف الأمور والإحاطة بها على ما هي عليه في الواقع أو على ما ستكون عليه في المستقبل)،[4] والسور المكية قدمت صفة العلم الإلهي بلغة رصينة، ووصف دقيق، وحجة قوية، كما في قوله تعالى: (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين)،[5] فهذه الآية ترسخ معاني إحاطة العلم الإلهي بكل شيء، وأنه كاشف

[1]- القرطبي، أحكام القرآن، ج9، ص 418
[2]-المرجع نفسه، ج9، ص 420
[3]- محمد قطب، دراسات قرآنية، ص 130
[4]- محمد سعيد رمضان البوطي، كبرى اليقينيات الكونية، ص 120
[5]-سورة الأنعام، الآية: 59

لدقيق الأمور وعظيمها، كما أنها تعزز خلق الرقابة الذاتية وحساسية الضمير نحو الواجبات الشرعية، لأن المتلقي حين يتربى على هذه العقيدة يرسخ فيه خلق مراقبة الله على جميع الأحوال، والاعتقاد الصحيح لصفة "العلم" يجعل اليقين في الله يثبت في القلب، لأن اعتقاد الفرد بعلم الله الواسع الكاشف المحيط بكل شيء، يطمئنه أنه ناصر رسله والمؤمنين والمظلومين، ويهدأ القلب بكل ما هو له صلة بالرزق والأجل، وهنا تظهر العلاقة الوطيدة بين العقيدة والأخلاق.

3.5 أولوية الإصلاح الأخلاقي بمقابل الإصلاح العقدي:

اعتنى الوحي المكي بإصلاح الأخلاق وإتمام مكارمها، وهو ما اصطلح عليه محمد قطب بأخلاقيات "لا إله إلا الله" في السور المكية، حيث قال: (هو أخلاقيات لا إله إلا الله، الأخلاقيات الإيمانية التي ينبغي أن يكون عليها المؤمنون بلا إله إلا الله، والأخلاقيات الجاهلية التي ينبغي أن ينبذها المؤمنون)،[1] وهذا ما عبر عنه الباحثون في الدراسات القرآنية عند ذكرهم لمميزات المكي بأنه: وضع الأسس العامة للتشريع والفضائل الأخلاقية التي يقوم بها عليها كيان المجتمع، وفضح جرائم المشركين في سفك الدماء، وأكل أموال اليتامى ظلما، ووأد البنات، وما كانوا عليه من سوء العادات،[2] وهذا الإصلاح الأخلاقي، التزم به القرآن في جميع شطره المكي من غير استثناء، ليبرز فلسفته في التغيير وإنشاء المجتمع على القيم التي أرادها له من خلال هذا الإصلاح، بل إنه سبق الإصلاح العقدي إلى حد ما ولو نسبيا، ولا أدل على ذلك من المنهج الذي وضعته أول السور نزولا، وهذا السبق أشار إليه محمد قطب بقوله: (يندد القرآن بأخلاقيات الجاهلية منذ السورة الأولى "سورة العلق"، بل يندد بها قبل أن يتحدث عن الفساد العقيدي ذاته، وكأنه ينبهنا بذلك إلى أن الفساد العقيدي ليس فسادا نظريا ولا فسادا في التصور المكنون في داخل الضمير فحسب، بل إن له آثارا سلوكية عملية يعرف بها ويتميز)،[3] وهنا تبرز أهمية الأخلاق في تثبيت العقائد

[1]- محمد قطب، دراسات قرآنية، ص130
[2]- محمد أحمد معبد، نفحات من علوم القرآن، ص 58
[3]- محمد قطب، دراسات قرآنية، ص 130

وترسيخها، إذ لا انفكاك بين الأخلاق والعقيدة، لأن الأخلاق هي تجسيد علمي للتنظير العقدي.

4.5 الأمثلة التطبيقية المجسدة لتعاضد الإصلاح الأخلاقي والعقدي:

– سورة العلق: في قوله تعالى:(**كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى**)،[1]فقال محمد قطب في تحليل لهذه الآية: (والطغيان خلق،... خلق جاهلي ينشأ من فساد عقيدي تصوري، **"أن رآه استغنى"**، فحين يتصور الإنسان – بالوهم – أنه قد استغنى بما في يده من المال والبنين والسلطان الممدود في الأرض، فإنه يطغى ويتجبر، ولكن ما هي حقيقة الاستغناء هنا ؟ إن الآية تقول "استغنى" وتترك مفهومها يفهم من بقية السياق، وواضح أنه قد "استغنى" عن الله سبحانه وتعالى، فإنه حين يكون محتاجا يتذكر الله ويدعوه، فإذا أعطاه الله نسي، نسي أن هذا الرزق الذي بين يديه هو من عند الله، ثم نسي حقيقة أخرى، أن الله أعطى ما أعطى قادر على أن يسترد ما أعطى، ويعيده إلى حالته قبل هذا العطاء، كلا إن الإنسان لينسى هذه الحقائق فيطغى، يتوهم أن ما بين يديه الرزق هو من صنع نفسه ولا يد لله فيه، ويتوهم أنه باق بين يديه لا يزول، وليس لله عليه سلطان، فيجره هذا الوهم وذاك إلى تصور خاطئ، هو أنه قد استغنى عن الله سبحانه ولم يهد في حاجة إليه، ومن ثم يطغى فلا يلتزم حدا من الحدود، هذه الأوهام كلها ناشئة عن فساد في التصور الاعتقادي، فلو أن هذا الطاغية عرف الله على حقيقته لقدر الله حق قدره، ولعلم أنه لا يمكن أن يستغني عن الله لحظة واحدة، لأنه هو وكل مل يملك داخل في ملكوت الله سبحانه وتعالى، خاضع لسلطانه، ورهن لمشيئته، وإن شاء الله أبقاه وإن شاء أزاله، ولا تستطيع قوة في السماء ولا في الأرض أن تمنعه من الله، لو أنه عرف هذا على حقيقته لزال عنه وهم الاستغناء عم الله، وزال عنه بالتالي ذلك الطغيان الذي أحدثه وهم الاستغناء، ولاستقام سلوكه في الأرض نحو الله ونحو الناس، وهكذا ينبع السلوك من التصور، ويؤدي التصور إلى السلوك).[2]

[1]– سورة العلق، الآية: 7

[2]– محمد قطب، دراسات قرآنية، ص 131

– **سورة القلم وسورة الفجر**: في السورة الثانية من حيث النزول "سورة القلم"، نجد فيها النَّفَس الخلقي الممزوج بالعقيدة، فإذا انتقلنا إلى السورة التالية بعد "العلق" وهي سورة "القلم" وجدنا نفس التوكيد على المعنى ذاته،[1] وكذلك نجد في سورة الفجر، قال محمد قطب: (فإذا انتقلنا إلى سورة أخرى مما نزل في السنوات الأولى للدعوة، كسورة "الفجر"، وجدنا استمرارا لنفس الخط)،[2] والقول نفسه في آخر سورة نزلت في مكة، ألا وهي سورة المطففين، التي ذكر الزحيلي ما اشتملت عليه قائلا: (عنيت هذه السورة كسائر السور المكية بأمور العقيدة، وعلى التخصيص أحوال يوم القيامة وأهواها، وعنيت بأمور الأخلاق الاجتماعية، وهي هنا تطفيف الكيل والميزان)،[3] هذا المعنى هو الذي قرره محمد قطب حين قال: (فإذا جئنا إلى آخر سورة نزلت في مكة، وهي سورة المطففين وجدنا نفس التوكيد على الجانب السلوكي).[4]

6. وسائل الإصلاح العقدي والأخلاقي في القرآن المكي:اتخذ القرآن المكي الكثير من الوسائل ونوع فيها كي يصل إلى الإصلاح المنشود عقديا وأخلاقيا، ونذكر بعضها على سبيل المثال لا الحصر:

1.6 الاعتماد على الأدلة العقلية:جاءت الآيات المكية بأدلة عقلية تثبت القضايا الكبرى للعقيدة، كقضية إثبات وحدانية الله تعالى في قوله: (**لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا**)، وهذا مذهب كلامي أوردته الآية مفاده: أن يورد حجة للمطلوب على طريق أهل الكلام بأن يورد ملازمة ويستثني عين الملزوم، أو يفيض اللازم أو يورد قرينة من القرائن الاقترانيات لاستنتاج المطلوب، ومثاله: (**لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا**) أي: الفساد منتفٍ فكذلك الإلهية منتفية،[5] وقد علق محمد أبو زهرة على هذا الدليل العقلي

[1]-المرجع نفسه، ص 132
[2]- المرجع نفسه، ص 133
[3]- وهبة الزحيلي، ج15، ص 481
[4]- محمد قطب، دراسات قرآنية، ص 135
[5]- الشريف الجرجاني، التعريفات، ص207

القرآني غداة تفسيره للآية بقوله: (وإن إثبات بهذا الدليل العقلي الذي جاء به القرآن هو أقوى دليل جاء به المتكلمون لإثبات الوحدانية، وهو الذي يسمى عندنا بدليل التمانع).[1]

2.6 ذكر قصص الأنبياء والأمم السابقة للعبرة والقياس:ووجه التعليل أن الاعتبار بالقصة لا يحصل إلا إذا كانت خبرا عن أمر وقع، لأن ترتب الآثار على الواقعات ترتب طبيعي فمن شأنها أن تترتب أمثالها على أمثالها كلما حصلت في الواقع، ولأن حصولها ممكن، إذ الخارج لا يقع فيه المحال ولا النادر، وذلك بخلاف القصص الموضوعة بالخيال والتكاذيب فإنها لا يحصل بها اعتبار لاستبعاد السامع وقوعها لأن أمثالها لا يعهد،[2] وتزيد أهمية ذكر القرآن المكي للقصص السالفة في بناء الإصلاح العقدي والأخلاقي في: أن تماثل أحوال الأمم تلقاء دعوة أنبيائها مع اختلاف يزيده علما بأن مراتب العقول البشرية متفاوتة، وأن قبول الهدي هو منتهى ارتقاء العقل، فيعلم أن الاختلاف شنشنة قديمة في البشر، وأن المصارعة بين الحق والباطل شأن قديم، وهي من النواميس التي جبل عليها النظام البشري.[3]

3.6 استعمال القوة في الألفاظ والصرامة في الخطاب:وذلك يتجلى في: قصر الفواصل مع القوة في الألفاظ، وإيجاز العبارة، بما يصخ الآذان، ويشتد قرعه على المسامع، ويصعق القلوب، ويؤكد المعنى بكثرة القسم، كقصار المفصل إلا نادرا،[4] إن القارئ للسور المكية يجدها عامرةً بالأدوات اللغوية الخاصة بالخطاب المكي من حيث الأسلوب، خاصة إذا استحضرنا الذائقة اللغوية لدى العرب في هذا المقام، فإننا نستنتج أن أساليب القرآن أثرت عليهم أيما تأثير، ومن جهة أخرى، فمن ضوابط السور المكية أن :كل سورة فيها "كلا" فهي مكية، وقد وردت في القرآن ثلاثا وثلاثين مرة قي خمس عشر سورة كلها في

[1]- محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، دار الفكر العربي، ص 48
[2]- الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج13، ص 72
[3]- المرجع نفسه، ج12، ص 192
[4]- مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، ص 58

النصف الأخير من القرآن،[1] وحكمة ذلك أن "كلا" للردع والزجر، وهذا إنما يكون للمعاند المستكبر، فهو مناسب لمخاطبة المشركين في مكة،[2] ومن خلال هذا الضابط نستنتج أن القرآن المكي يحمل رصيدا من القيم يريد من خلالها أن يروض ما استوحش من أخلاق العرب في الجاهلية، ويصحح ما ضل من عقائدهم، وإذا استدعينا الأمثلة من القرآن الكريم في ذلك نجدها كثيرة، منها ما في سورة الفجر: (**فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمني وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانني كلا** ....)،[3] عندما فسر ابن عاشور هذه الآية قال: (وقد أعقب الله ذلك الردع والإبطال بقوله: "كلا" فمناط الردع والإبطال كلا القولين لأنهما صادران عن تأويل باطل وشبهة ضالة)،[4] فهذا توجيه إلى غرس قيمة عقدية ترشد إلى معرفة الفاعل الحقيقي في الكون، كما أن هذا الخطاب يرمي إلى الإصلاح العقدي لواقع العرب مع موضوع البسط في الرزق وتقديره، والغنى والفقر، كما قصد تغيير السائد في المجتمع حيال هذا الموضوع، وهو الذي عبر عنه ابن عاشور بقوله: (وجعلوا هذا الغرور مقياسا لمراتب الناس فجعلوا أصحاب الكمال أهل المظاهر الفاخرة، ووصموا بالنقص أهل الخصاصة وضعفاء الناس...).[5]

4.6 توسل الخطاب المُسَوِي بين الأطياف المخاطَبين:وذلك ما ساعد على تقليص مبدأ الطبقية والعنصرية في المجتمع الجاهلي، بل إن الدراسات القرآنية قررت أن: من الضوابط التي انفرد بها المكي عن المدني هو أن كل سورة ورد فيها: " **يا أيها الناس** " وليس فيها: "**ياأيها الذين آمنوا**" فهي مكية، اللهم إلا في استثناءات ذكرها العلماء، والقاعدة فيها أغلبية، قال الزركشي في هذا الشأن ناقلا أثرا يفيد هذا المعنى: (عن علقمة قال: كل

[1]- فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، دراسات في علوم القرآن، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1428هـ/2007م، ط15، 142

[2]- المرجع نفسه، ص 142

[3]- سورة الفجر، الآية : 16

[4]- الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج 30 ، ص 335.

[5]- المرجع نفسه، ج 30 ، ص 335.

شيء نزل فيه " يا أيها الناس " فهو بمكة، وكل شيء نزل فيه " **يا أيها الذين آمنوا** " فهو بالمدينة)،[1] فالقرآن المكي ابتدأ استئصال الطبقية والعنصرية السائدتين منذ البدايات الأولى للإسلام، ليؤكد بهذا النداء أن الناس كلهم سواسية فيه بقطع النظر عن أجناسهم و ألوانهم و حيثياتهم، كما أن القضايا التي تأتي بعد النداء الكلي للناس لها مزيد تعزيز للإصلاح الأخلاقي والعقدي، فإنها تعالج ظاهرة عقدية أو أخلاقية أو مجموع قضايا من هذا وذاك، بأساليب متنوعة بين الأمر والحث والإرشاد والنهي والتحذير...الخ، ولا أدل على ذلك من قوله تعالى: **(يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد)**، جاء في تفسير الشعراوي ما نصه: (النداء في "**يا أيها الناس**" نداء عام للناس جميعا، المؤمن والكافر، والطائع والعاصي "أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد" هذه حقيقة يذل الله بها كبرياء الذين تأبوا على الإيمان بالله، وتمردوا على منهج الله، وكأن الله تعالى يقول لهم: ما دمتم قد ألفتم التمرد فتمردوا أيضا على الفقر إن أفقرتكم، وعلى المرض إن نزل بكم، تمردوا على الموت إن حان أجلكم، إذن: أنتم مقهورون لربوبية الله لا تنفكون عنها)،[2] فالخطاب العام لكل الناس دائما ما يأتي بعده قضية كبرى تحل سؤالا من الأسئلة الشائكة في الغيبيات أو الوجوديات أو الأخلاقيات.

5.6 التعزيز بالمؤكدات اللفظية والمعنوية: ونذكر على سبيل المثال لا الحصر، توسل الوحي المكي القسمَ كمؤكد لإثبات قضايا العقيدة والأخلاق، فهو من الضوابط التي اتسمت بها السور المكية أن: كل سورة مبدؤها بقَسَم وهي خمس عشرة سورة، وهي الصافات، والذاريات، الطور، النجم، المرسلات، النازعات، البروج، الطارق، الفجر، الشمس، الليل، الضحى، التين، العاديات، العصر،[3] والمقصد الأساسي من استخدام القسم راجع إلى اختلاف الاستعداد النفسي في قبول أي فكرة من إنسان لآخر، والذي بدوره يرجع ذلك إلى التربية والبيئة الاجتماعية، والأفكار السائدة، والمفاهيم الرائجة، التي

[1]- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص 189

[2]- محمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي، مطابع دار أخبار اليوم، مج 20، ص 12469

[3]-فهد الرومي، دراسات في علوم القرآن، ص 142

من خلالها تتكون تصورات الإنسان ومفاهيمه ومرجعيته الفكرية العقدية والاجتماعية والدينية، والقرآن راعى هذا العامل جيدا، فأتت أساليب الإقناع فيه منوعة، على حسب كل متلقٍ له، وعلى مقتضى تحديات كل حقبة، والحال التي كانت عليها مكة تستدعي أسلوب التوكيد بجميع أنواعه، كي تصل عقول الناس إلى مرحلة الإقناع، فالمخاطب بالقرآن المكي هم أناس – في غالبهم – جاحدون للرسالة الجديدة بمختلف أطيافهم وحيثياتهم، فجاء أسلوب القسم ليزيح عنهم ما ران على قلوبهم وعقولهم من أمراض وصفها القرآن بالجهل والعمى والغرور... الخ، وهنا تضح فائدة القسم التي عبر عنها مناع القطان: (والقسم من المؤكدات المشهورة التي تمكن الشيء في النفس وتقويه، وقد نزل القرآن الكريم للناس كافة، ووقف الناس منه مواقف متباينة، فمنهم الشاك، ومنهم المنكر، ومنهم الخصم الألد، فالقسم في كلام الله يزيل الشكوك، ويحيد الشبهات، ويقيم الحجة، ويؤكد الأخبار، ويقرر الحكم في أكمل صورة)،[1] والأمثلة من القرآن الكريم كثيرة، منها قول الله تعالى: (والصافات صفا ...)،[2] والتي قال في تفسيرها الطاهر بن عاشور: (القسم لتأكيد الخبر مزيد تأكيد لأنه مقتضى إنكارهم الوحدانية، وهو قسم واحد والمقسم به نوع واحد مختلف الأصناف، وهو طوائف الملائكة كما يقتضيه قوله: "فالتاليات ذكرا")،[3] ويضح الإصلاح العقدي في فاتحة هذه السورة المكية حينما تقف بنا عند جواب القسم، حيث قررت وأكدت على عقيدة التوحيد دامغة لكل المفاهيم السائدة حينئذ من عقائد كانت تؤمن بتعدد الآلهة، وهذا الذي يشرحه الطاهر بن عاشور بقوله: (وجملة "إن إلهكم لواحد" جواب القسم ومناط التأكيد صفة "واحد" لأن المخاطبين كانوا قد علموا أن لهم إلها ولكنهم جعلوه عدة آلهة فأبطل اعتقادهم بإثبات أنه واحد غير متعدد، وهذا إنما يقتضي نفي الإلهية عن المتعددين، وأما اقتضاؤه تعيين الإلهية لله تعالى فذلك حاصل بأنهم لا ينكرون أن

[1]–مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، ص 302
[2]– سورة الصافات، الآية : 01
[3]– الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج 23، ص 83

الله تعالى هو الرب العظيم ، ولكنهم جعلوا له شركاء فحصل التعدد في مفهوم الإله فإذا بطل التعدد تعين انحصار الإلهية في رب واحد هو الله تعالى).[1]

6.6 مراعاة التدرج ومقامات التلقي: وهو الذي عامل مهم في إيصال المعلومة العقدية أو القيمة الأخلاقية المراد إيصالها لأكبر قدر من المخاطبين، والمثال على ذلك من السور المكية ما جاء في أولى آي سورة الإخلاص، (قل هو الله أحد)،[2] فقد بيَّن ابن عاشور مقامات الثلاث لتلقي معاني هذه الآية نظريا وسلوكيا، وكيف ساهمت في إرساء عقيدة وجود الله ووحدانيته، فشرح هذه المقامات فقال: (الأول: مقام السابقين المقربين الناظرين إلى الأشياء من حيث هي هي، فلا جرم ما رأوا موجودا سوى الله لأنه هو الذي لأجله يجب وجوده فما سوى الله عندهم معدوم، فقوله "هو" إشارة مطلقة، ولما كان المشار إليه معينا انصرف ذلك المطلق إلى ذلك المعين فكان قوله "هو" إشارة من المقربين إلى الله فلم يفتقروا في تلك الإشارة إلى مميز فكانت لفظة "هو" كافية في حصول العرفان التام لهؤلاء.

المقام الثاني: مقام أصحاب اليمين المقتصدين فهم شاهدوا الحق موجودا وشاهدوا الممكنات موجودة فحصلت كثرة في الموجودات فلم تكن لفظة "هو" تامة الإفادة في حقهم فافتقروا معها إلى مميز فقيل لأجلهم "هو الله".

المقام الثالث: مقام أصحاب الشمال وهم الذين يجوزون تعدد الإله فقرن لفظ "أحد" بقوله "هو الله" إبطالا لمقالتهم)،[3] وبناء على هذه المقامات، فإن لكل إنسان أن يسلك المقام الذي يناسب حاله واستعداده، لأن أحوال واستعدادات المخاطَبين مختلفة، وسلوك هذه المقامات التعبدية ما هو إلا أثر للاعتقاد الصحيح والخلق القويم.

[1]- المرجع نفسه، ج 23 ، ص 86

[2]- سورة الإخلاص، الآية: 1

[3]- الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج30، ص 613

خاتمة:

في الختام نخلص إلى: أن القرآن المكي قدم أنموذجا إصلاحيا عزَّزَ فيه الرابطة بين العقيدة والأخلاق، ونوَّع فيه من الوسائل المثبتة للعقيدة الإسلامية والمرسية لمكارم الأخلاق، مراعيا في ذلك حال المخاطبين واستعدادهم الفكري والنفسي، وما تكتنفه البيئة الاجتماعية من عادات وتقاليد ومبادئ وقيم، كما عولت سور القرآن المكي على ما وهب المكيون من عقل وذوق لغوي، فاتخذت من الأدلة العقلية، والأساليب اللغوية ما يُوَصِّل إلى درجة الإقناع بمقتضيات العقيدة الإسلامية، وما يُبَلِّغ إلى الرقي في المعاملات الأخلاقية.

قائمة المصادر والمراجع:

1-ابن خلدون، المقدمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1425هـ/2005م.

2-أبو عبد الله القرطبي، الجامع لأحـكام القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1467هـ/2006م ت: عبد الله بن عبد المحسن التركي.

3-أبي الحسن أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، دار الفكر، ت عبد السلام محمد هارون.

4-بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، دار التراث، القاهرة، ت محمد أبو الفضل إبراهيم.

5-الشريف الجرجاني، التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1424هـ/2003م.

6-الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984.

7-عبد الرحمن حبنكة الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، دار القلم، دمشق، ط5، 1420هـ/1999م.

8-فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، دراسات في علوم القرآن، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1428هـ/2007م، ط15.

9-محمد سعيد رمضان البوطي، كبرى اليقينيات الكونية، دار الفكر، بيروت، لبنان، دمشق، سوريا، ط1، 1434هـ/2010م.

10- محمد عمارة، الشيخ البشير الإبراهيمي إمام في مدرسة الأئمة، دار السلام، القاهرة، ط1.

11-محمد قطب، دراسات قرآنية، دار الشروق، القاهرة وبيروت.

12-محمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي، مطابع دار أخبار اليوم، مج 20.

13-المرتضى الزبيدي، تاج العروس، مطبعة حكومة الكويت، 1369هـ/1969م، ت: حسين نصار.
14-مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، مكتبة المعارف، الرياض، ط2، 1418هـ/1996م.
15-وهبة الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر، دمشق، ط 10، 1430هـ/2003م.